الكتاب الثامن
شروط النهضة
تأليف: مالك بن نبي
تحليل وعرض أ.د. سليمان الخطيب

يفتتح مالك نبي كتابه «شروط النهضة» بالتأكيد على رغبة الجيل الحاضر في تفهم واستيعاب الوقائع الاجتماعية، حقيقتها ونتائجها ثم يصرح بأهمية العامل الديني الذي يستخدم في التعبير عن مصطلح «الفكرة الدينية» ودوره كمؤثر اجتماعي فعَّال تتوقف على دورة حركة التاريخ، مضيفًا أهمية العوامل النفسية والزمنية في الحراك التاريخي. مع بيان الأثر المباشر للجانب الديني على هذه العوامل وتوجيهها وهذا الطرح يعنى ببساطة توضيح دور الدين في تكوين وتطوير الجانب الاجتماعي.

ويلج بن نبي جانبًا آخر في «شروط النهضة» وهو تناول العلاقة بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي باعتبارهما مقياسًا من أهم مقاييس علم الاجتماع، وفى هذا الصدد يؤكد بن نبي على البعد الغيبي للفكرة الدينية حيث يقول «إن الفكرة الدينية لا تقوم بدورها الاجتماعي، إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية، أي بقدر ما تكون معبرة عن نظرتنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية،

وفيما يتعلق بقراءة الواقع الإسلامي المعاصر، يؤكد بن نبي على أن دور الشعوب الإسلامية في مواجهة الاستعمار، كان دورًا بطوليًا فقط، ولم تلتفت إلى مواجهة مشكلات الواقع وخاصة أهمية التعرف على الأسباب التي مهَّدت للاستعمار وتمكن من واقع الأمة على كافة المستويات.

وفى نص بالغ الدلالة حول أهمية طرح المسألة الحضارية يقول بن نبي «إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم

أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبنى الحضارات أو تهدمها» .

وهو يعزى نهضة المجتمع الإسلامي الحديث إلى جهود «جمال الدين الأفغاني» حيث يرى أن كلماته، قد شقت كالمحراث في الجموع النائمة طريقها، حيث حاول طرح فكرة النهوض التي سرعان ما أتت أكلها في الضمير الإسلامي ضعفين، وأصبحت قوة فعالة، وبعثت الحركة في كل مكان.

وفى هذا الصدد يرى بن نبي أن معظم القيادات والاتجاهات - رغم تباينها واختلافها - كانت متفقة على نقطة هي «إرادة الحركة والتجديد والفرار من الزوايا الخرافية إلى المكاتب العلمية، وأصبحت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] شعار كل من يسير في سلك الإصلاح في مدرسة «ابن باديس» حيث كانت أساسًا لكل تفكير، وأصبحت إرادة التغيير والمطلب الشائع لدى الجماهير، ورفعت شعارات العمل والتعليم، والرغبة في تجديد الصلة بالسلف الصالح، وإحياء شعائر المجتمع الإسلامي الأول، وعن الخصوصية الحضارية للمجتمع الإسلامي يرى بن نبي أن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعية، إنما يكون في نفس الظروف والشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى، في محاولة لتذكير الناس بحضارة الإسلام في عصوره الزاهرة، وتم ذلك بفضل تعاليم القرآن.

وحتى عام ١٩٢٥ استطاعت الحركة الإصلاحية أن تخمد نيران أهل الزردة (الفتنة) حيث زالت عن البلاد مسمى الدراويش، وتخلصت منها الجماهير بعد أن ظلت طوال خمسة قرون تمارس الخرافات والأوهام، وذهبت بذهابهم تلك الجنة التي وُعدها المريدون بلا كد ولا عمل، إلا ما يتلمسون من رضا الشيخ ودعواته، وصلت وكأنها جنة الله التي وعدها المتقين العاملين.

وهو ينحو باللائمة على رموز الحركة الإصلاحية حين وقعوا في فخ الممارسات الانتخابية، حيث يرى بن نبي أن ثيابهم البيضاء قد تلطخت، وهبطت معهم الجهود الإصلاحية، وهو يعزى إلى الإدارة الاستعمارية الأساليب المختلفة لتصعيد النشاط الخرافي للدراويش (الطرق الصوفية) ويدرج بن نبي ما يحدث لدى الجماهير لنفسية القابلين للاستعمار، ولا ينجو شعب من أساليب الاستعمار، إلا إذا نجت نفسه وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للاستعمار. فالشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدَّل وضعه الاجتماعي، المرتبط بسلوكه النفسي.

إن مالكًا يؤكد على نتائج التغيير النفسي التي اعتمدت عليها الاتجاهات الإصلاحية، فكانت الأمة تقدم تضحيات لبناء المدارس والمساجد من أجل البعث الفكري، والبعث الروحي، اللذين هما عماد كل حضارة في سيرها الحثيث.

بالرغم من هذه الجهود يؤكد مالك على أن جوهر المسألة هو مشكلتنا العقلية، نحن لازلنا نسير ورءوسنا في الأرض، وأرجلنا في الهواء، وهذا القلب للأوضاع هو المظهر الجديد لمشكلة نهضتنا.

من التكديس إلى البناء: لقد ظل العالم الإسلامي خارج التاريخ دهرًا طويلًا، كأن لم يكن له هدف، حيث استسلم المريض للمرض، وقبيل ميلاد هذا القرن سمع من يُذكِّره بمرضه، ومن يحدثه عن العناية الإلهية التي استقرت على وسادته، فلم يلبث أن خرج من سباته العميق ولديه الشعور بالألم، وبهذه الصحوة الخافتة تبدأ للعالم الإسلامي حقبة تاريخية جديدة، يطلق عليها النهضة نظر إليها الأفغاني، كمشكلة سياسية، ونظر إليها محمد عبده كمشكلة إصلاحية عقيدية وعظية.

وقد نتج عن هذا أنهم منذ خمسين عامًا لا يعالجون المرض، وإنما يعالجون الأعراض، والمشكلة أن العالم الإسلامي قد لجأ إلى صيدلية الحضارة الغربية طالبًا الشفاء، ولكن من أي مرض؟ وبأي دواء؟ .

وقد حاول العالم الإسلامي توحيد جهوده الاجتماعية هادفًا إلى تحقيق حضارة، يطلق عليها بن بنى «بادرة حضارة». ورغم كل الجهود التي بذلت وتبذل في إطار النهضة والنهوض، لن نجد حضارة، وهنا يخلص بن نبي إلى النتيجة الهامة «إن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن: «الحضارة هي التي تلد منتجاتها» لكن البيِّن أن العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام من منتجات الحضارة، أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة.

وفى إطار هذا السياق يقترح بن نبي تركيبًا يرى أنه صالح لتأسيس النهضة، فيرى أن كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية: ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت..... ولكن بن نبي يطرح تساؤلًا هامًا: لماذا لا يوجد هذا الناتج تلقائيًا حيثما توفرت هذه العناصر الثلاثة؟

يجيب بن نبي على ذلك بضرورة وجود عامل يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، وهذا العامل هو: «الفكرة الدينية التي رافقت دائمًا تركيب الحضارة خلال التاريخ».

وحول الدورة الحضارية – حيث يعرض لها مالك في أكثر من مؤلف – يبين لنا أن الحضارة تتمثل أمامنا كأنها مجموعة عددية تتابع في وحدات متشابهة، ولكنها غير متماثلة، وهكذا تتجلى لأفهامنا حقيقة جوهرية في التاريخ هي «دورة الحضارة» وكل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين، فهي حضارة بهذه الشروط.

وهو في هذا الصدد يؤكد على ارتباط حركة الحضارة بالواقع التاريخي للمجتمع على المستويين الفردي والاجتماعي.

وفى هذا الجانب لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج، مغفلًا مكان أمته

ومركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله، وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولًا من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعًا للجهد ومضاعفة للداء، إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار. والفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية.

هذا الطرح من بن نبي يضعنا في أهمية التأمل في سنن التاريخ التي لا تغيير لها كما أشار إليها القرآن الكريم ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣].

ويرى بن نبي أنه لا يمكن تناول دورة تاريخنا إلا من خلال ما يطلق عليه بن نبي النص المبدئي للتاريخ التكويني كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١]. وهو يحاول ربط هذا بالواقع فيقول: «ينبغي ألا نقرر هذا المبدأ حسب إيماننا به فقط، بل أن يكون تقريره في ضوء التاريخ».

وحول مطابقة التاريخ للمبدأ القرآني..

فمن المعلوم أنه حينما يبتدئ السير إلى الحضارة، لا يكون الزاد بطبيعة الحال من العلماء والعلوم، ولا من الإنتاج الصناعي أو الفنون تلك الأمارات إلى درجة ما من الرقى، بل إن الزاد هو «المبدأ» الذي يكون أساسًا لهذه المنتجات جميعًا.

وكما أشار بن نبي من قبل حول أهمية العامل الديني، فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها. ويربط بن نبي بين معادلته الأثيرة: إنسان + تراب + وقت = حضارة والتي أضاف إليها العامل الديني، يربط بينها وبين بزوغ الحضارة، فيرى أنه نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة، فكأنما ولدتها كلمة «اقرأ»

التي أدهشت النبي الأمي وأثارت معه وعليه العالم، فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلت قرونًا طوالًا تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التمدن والرقى والتمدن.

ونتج عن هذا الطرح أن المدنيات الإنسانية حلقات متصلة، تبدأ حلقتها الأولى بظهور فكرة دينية، ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثم العقل، وذلك هو منحنى السقوط الذي تخلفه عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل، حيث تنطلق الغرائز الدنيا من عقالها، لكي تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية.

وهو يطلق على المرحلة الخالية من الروح والعقل، اسم المرحلة «السياسية» بالمعنى السطحي لكلمة «سياسة» .

والتجارب التاريخية العامة تؤكد أطوار الحضارات هذه، ولا تكاد حضارة ما تشذ عن هذه القاعدة. بهذا المعنى فإن الشيوعية ليست منبثقة عن «عامل الروح»

ويضرب مالك مثلًا لأثر الإيمان في النفس والإنسان من خلال المثل الذي ضربه سلمان الفارسي، الذي كان يقوم بأضعاف العمل الذي يؤديه الصحابي الواحد في حفر الخندق حول المدينة في غزوة «الأحزاب» أو الذي ضربه عمار بن ياسر حين كان يحمل حجرين على كاهله في بناء مسجد المدينة، حيث كان الفرد يحمل حجرًا واحدًا، ففي كلتا الحالتين نجد أن الإيمان هو الذي مهد الطريق للحضارة.

ومحصلة الكلام السابق أن الحضارة تولد مرتين، أما الأولى: فميلاد الفكرة الدينية، وأما الثانية، فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس، أي دخولها في أحداث التاريخ.

ويخلص مالك في حديثه عن الدورة الحضارية، ببيان تأثير الدين في حركة التاريخ، حيث يرى أن قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين، وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين مؤثر صالح في كل زمان ومكان.

أثر الدين في التاريخ، يمكن أن يتجدد ويستمر ما لم يخالف الناس شروطه وقوانينه، وهو ما ترمز إليه الآية الكريمة ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

نقد المذهب المادي:

إن ماركس ومدرسته يذهبان إلى أن كل اكتمال تاريخي لا يكون إلا نتيجة الضرورات المادية، وحاجات الإنسان الأساسية وبالتالي الوسائل الفنية التي يخترعها ويستعملها في تلبية تلك الحاجات، فالحاجة والفن الصناعي يمثلان في نظر ماركس مركزي التقاطب لقوى الإنتاج، المركزين اللذين يحددان العلاقات الاجتماعية الخاصة بحضارة معينة، كما يحددان هذه الحضارة ذاتها معنويًا أو ماديًا.

ولكن هذه النظرية لا تفسر لنا النقطة الأساسية الماثلة فيما يحدث من تفكك العلاقات الاجتماعية، وتلاشى الحضارات، دون ظهور أي تغيير في طبعة الحاجات ووسائل الإنتاج، فحضارات أمريكا السابقة على العهد الكولومبي، وكذلك الحضارة الرومانسية لم تتلاش لفقدها الوسائل الصناعية والحاجات.

وكيف تبدأ دورة الحضارة؟

تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين، كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيًا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحة الجماح.

وقبل بدء دورة من الدورات أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة

للحضارة، أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريا أو سلبت منه الحضارة تمامًا، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة.

والمشكلات التي تواجه المجتمع في الإطارين الفردي والاجتماعي، قد سبق أن وجدت لها الفكرة الإسلامية حلًا منذ ثلاثة عشر قرنًا من الزمن، حتى تحرك الإنسان السابق على الحضارة والذي بنى الحضارة الإسلامية، إلى حيث يسوقه الله.

حقيقة المعادلة: إنسان + تراب + وقت:

أهمية الإنسان:

يرى بن نبي أن الإنسان وبوحي من فطرته - عندما يتحرك، ويأخذ طريقه لكي يصبح رجل حضارة فإنه لا زاد له سوى التراب والوقت وإرادته لتلك الحركة، وهكذا لا يتاح لحضارة في بدئها رأسمال إلا ذلك الرجل البسيط الذي تحرك، والتراث الذي يمده بقوته الزهيد، حتى يصل إلى هدفه، والوقت اللازم لوصوله، وكل ما عدا ذلك من قصور شامخات، ومن جامعات وطائرات، ليس إلا من المكتسبات، لا من العناصر الأولية.

المجتمع الإنساني يمكن أن يستغنى وقتًا عن اكتساب الحضارة، ولكن لا يمكن أن يتنازل عن هذه العناصر الثلاثة التي تمثل ثروته الأولية، دون أن يتنازل في الوقت نفسه عن جوهر حياته الاجتماعية وتلك هي القيم الخالدة، التي نجدها كلما وجب علينا العودة إلى بساطة الأشياء، أي في الواقع كلما تحرك رجل الفطرة وتحركت معه حضارة في التاريخ.

ومن الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها، فالمسألة هي: أنه يجب أن نصنع رجالًا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى.

وفيما يتعلق بعنصر التراب:

حين يحدثنا مالك عن العنصر الثاني من المعادلة وهو: التراب، يرى أنه لا يبحث في خصائصه وطبيعته، ولكن يتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالى القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة - كما نقول اليوم - يكون التراب على قدرها من الانحطاط. والذي يقرب لنا المقياس السابق، إن التراب في أرض الإسلام - عمومًا - على شيء من الانحطاط، بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه.

ثم يرى بن نبي، أننا لن نستطيع إنقاذ ذريتنا من الأجيال القادمة إلا بالعمل الشاق الذي يقوم به جيلنا الحاضر وعندما نحقق تلك المعجزة التي تكون بانتصارنا على أنفسنا، وعلى أهوال الطبيعة، فإننا سوف نرى أن أية رسالة في التاريخ نحن منتسبون إليها، لأننا نكون قد شرعنا في بناء حياة جديدة بدأت بالجهود الجماعية، بدل الجهود الفردية، ولسوف تظهر بعد ذلك أمامنا أعمال خطيرة، ولكنها سوف لا تخيفنا لأن شعبنا أخضع التراب ومهد فيه لحضارته، ولم يعد شعبًا يخاف من نوائب الزمن.

وبالرغم من التحديد الدقيق الذي أوضحه بن نبي لمصطلح «التراب» ضمن معادلته مع الإنسان والوقت، نرى أنه قد ضيَّق نطاق التسخير الإلهي للإنسان من ضرورة انفتاحه على الكون بمعناه الواسع، وليس مجرد الاقتصار على الجانب الجغرافي المرتبط بالتربة وإصلاحها إعدادها للزراعة، فالقرآن الكريم يدعو ألا تقصر حركة الإنسان سعيها على مستوى الأرض، ويعلمها أن وطن الإنسان ليس هو الأرض فحسب بل الكون كله.

قيمة الوقت في معادلة الحضارة:

أما عن العنصر الثالث في معادلة مالك - وهو الزمان - يقول عنه مالك: إن

الزمن يمر خلال المدن، يغذى نشاطها بطاقته الأبدية، وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب، ومجال كل فرد، وهو في مجال ما يصير «ثروة» وفى مجال آخر يتحول عدمًا، فهو يمرق خلال الحياة ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحتها له الأعمال التي أنجزت فيه، وفى ساعات الخطر في التاريخ، تمتزج قيمة الزمن بغريزة المحافظة على البقاء، إذا استيقظت، ففي هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب، لا يقوم الوقت بالمال، إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر.

وعن قيمة الوقت في حياة الشعوب الإسلامية، لا نعرف شيئًا يسمى «الوقت»، ولكنه الوقت الذي ينتهي إلى عدم، لأننا لا ندرك معناه، ولا تجزئته الفنية، ونحن لا نعرف إلى الآن فكرة «الزمن» الذي يتصل اتصالًا وثيقًا بالتاريخ.

ومن الناحية الاقتصادية، يتحدد معنى التأثير والإنتاج، فالحياة والتاريخ الخاضعان للتوقيت كان وما يزال يفوتنا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق، وخطوات واسعة لكي نعوض تأخرنا.

ثم يربط بن نبي بين العناصر الثلاثة، حيث يرى، إننا لا نملك في أيدينا سوى هذه العناصر الثلاثة، سيرى العالم ازدهار حياتنا من جديد، هنالك حيث يخيم الجهل والفقر سيشهد الناس سيطرة الصناعة والفن، والعلم والرفاهية.

وإذا كانت هذه العناصر ؛ إنسان + تراب + وقت تتوقف على توجهات الإنسان وتطلق نحو مستقبل واعد، فهي منوطة بتوجيهه في نواح ثلاثة:

أولًا – توجيه الثقافة ثانيا – العمل ثالثا – رأس المال

توجيه الثقافة:

حيث يتحدث مالك عن النهضة، فإنه يتصورها من ناحيتين: الأولى تتصل بالماضي، والأخرى تتصل بخمائر المصير وجذور المستقبل.

وهو يبدأ بضرورة تصفية عاداتنا وتقاليدنا، وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتاله، حتى يصفو الجو للعوامل الحية الداعية إلى الحياة.

وهذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث وعن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة ويتم هذا الوضع بطريقتين:

الأولى: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي.

الثانية: إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل.

وحضارتنا الإسلامية قامت بعملية التحديد هذه من ناحيتها السلبية والإيجابية، إلا أنها قد جاءت بهذين التحديدين مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم، الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية.

وعن رد فعل الجماهير المسلمة لتجربة محمد عبده حول النهضة - وهو يخص هنا - الدوائر الدينية في الأزهر والزيتونة - يرى أنها لم تستطع أن تتصور في بعض الأحيان النتائج التي تقتضيها الحركة الإصلاحية، وهذا الأمر يعود بلا شك إلى ما بقى في أنفسنا من وطأة شديدة للانحطاط.

والتحديد الإيجابي للنهضة يتم من خلال إبراز العناصر التي يراها لازمة تمامًا للثقافة وهى:

١ - الدستور الخلقي. **٢ - الذوق الجمالي.**

٣- المنطق العملي. **٤ - الصناعة.**

والثقافة في الغرب تعنى فلسفة الإنسان، وخاصة تراث «الإنسانيات الإغريقية اللاتينية» . وفى الماركسية فإن الثقافة ذات علاقة وظيفية بالجماعة، فهي عند

ماركس: فلسفة المجتمع. أما عند مالك فإنه يربط بين الثقافة والحضارة، وفى ضوء هذا الربط تصبح الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة.

وهو يخلص إلى تعريف الثقافة بصورة عملية حيث يرى أنها «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها منذ ولادته كرأسمال أولى في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته.

والعلاقة بين الإنسان والجماعة تنسجم وتحدث من خلال عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر الحضارات.

وهو في حديثه عن النهضة حين يربطها بالإطار التربوي، فهو يعرض لظاهرة استشرت في العالم الإسلامي وهى ظاهرة التعالم، أي الحرفية في التعلم، والمتعالم هو الذي جعل من العلم مسخة وعملة زائفة، غير قابلة للصرف، وهذا النوع من الجهل حجرته الحروف الأبجدية، وجاهل هذا النوع لا يُقوِّم الأشياء بمعانيها ولا يفهم الكلمات بمراميها، وإنما بحسب حروفها.

ومن أوليات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي كعامل تاريخي لكي نفهمها، ثم كنظام تربوي تطبيقي لنشرها بين حلقات المجتمع.

معنى الثقافة في التاريخ:

هل يمكن تصور تاريخًا بلا ثقافة؟ إن الشعب الذي فقد ثقافته قد فقد حتمًا تاريخه. والثقافة - حين يحللها بن نبي - بما تتضمنه من فكرة دينية نظمت الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها، لا يسوغ أن تعتبر علمًا يتعلمه الإنسان، بل هي محيط يحيط به، وإطار يتحرك داخله، يغذى الحضارة في أحشائه، فهي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعًا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، بما في ذلك الحداد والفنان والراعي والعالم والإمام وهكذا يتركب التاريخ.

معنى الثقافة في التربية:

حين يربطها بسقوط المجتمعات فيقول: إن الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقى والتمدن، وفى نفس الوقت هي الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط فوق الجسر إلى الهاوية. وبهذه القاعدة تشتمل الثقافة في معناها العام على إطار حياة واحدة، يجمع بين راعى الغنم والعالم، بحيث تُوحِّد بينها دواع مشتركة، وهى تهتم في معناها الخاص بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، ولذلك فإن الثقافة تتدخل في شئون الفرد وفى بناء المجتمع وتعالج مشكلة القيادة فيه، كما تعالج مشكلة الجماهير.

وينحصر المركب الاجتماعي للثقافة من خلال برنامجها التربوي من أربعة عناصر تشكل مرتكزات للحياة الثقافية في مجتمع معين:

١- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.

٢- عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.

٣- منطق عملي لتحديد النشاط العام.

٤- الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع أو«الصناعة»حسب تعبير ابن خلدون.

وحول التوجيه الأخلاقي:

وهو هنا لا يهدف إلى شرح الفضائل الخلقية ولكنه يتعامل مع الأخلاق كمرتكز من مرتكزات البناء الحضاري، فهي - كما يرى مالك - «قوة التماسك» اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة الحياة في الجماعة عند الفرد، والتي تتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدينة والأمة، وتستخدم القبائل الموغلة في البداوة، هذه الغريزة لا يمكن توظيفها إلا بروح أخلاقية سامية.

هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض تأتيها مع نزول الأديان، عندما تولد الحضارات، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وحول التوجيه الجمالي:

يرى بن نبي، أن الجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات، وروائح وحركات وأشكال، يوحى للإنسان بأفكاره، ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل، أو السماحة القبيحة.

فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعًا إلى الإحسان في العمل، وتوخيًا للكريم من العادات. وللجمال أهمية اجتماعية هامة، إذا ما اعتبرناه المنتج الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع.

وحول وجود الجمال في واقعنا يرى أننا اليوم أصبحنا نفقد ذوق الجمال، ولو أنه يسرى في سلوك الفرد اليوم لسخرناه لحل مشكلات جزئية، تكون في مجموعها جانبًا من حياة الإنسان.

وحول المنطق العملي في حياتنا:

فنحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق العملي في حياتنا، لأن العقل المجرد ينتشر في العالم الإسلامي، في الوقت الذي يكاد ينعدم فيه العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه.

وعن علاقة المسلم المعاصر بالقرآن يرى بن نبي، أن هناك من يردد أن المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول: إنه يتكلم تبعًا لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي.

وحول الصناعة:

فهو يقصد بها كل الفنون والمهن والقدرات، وتطبيقات العلوم.

والصناعة وسيلة لكسب العيش، وأحيانا لبناء المجد، وهى وسيلة للمحافظة على كيان المجتمع واستمرار نموه، وفى هذا الصدد يقترح مالك ضرورة إنشاء مجلس للتوجيه الفني ليحل نظريًا وعمليًا مقتضيات التربية المهنية، تبعًا لحاجة البلاد.

ويرى مالك أن مواجهة مشاكلنا منوط بتكوين الفرد والحامل لرسالته في التاريخ.

أهمية شروط النهضة:

يمكن أن نصل إلى عدد من النقاط التي تمثل خلاصة الكتاب، والتي تبرز رؤية مالك بن نبي لعوامل النهضة في واقع الأمة المسلمة خلال الفترة المعاصرة.

أهمية تفهم واستيعاب الوقائع الاجتماعية:

يمكن أن نصل إلى عدد من النقاط التي تمثل خلاصة الكتاب، والتي تبرز رؤية مالك بن نبي لعوامل النهضة في واقع الأمة المسلمة خلال الفترة المعاصرة:

- أهمية تفهم واستيعاب الوقائع الاجتماعية.
- أهمية العامل الديني وجوهريته كمؤثر اجتماعي وحضاري.
- لقد ركزت الشعوب الإسلامية في مواجهة الاستعمار على الجانب النضالي والبطولي، ولم تلتفت إلى مواجهة مشكلات الواقع.
- بيان بن نبي حول أهمية الاتجاه الإصلاحي كما عند الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس.
- ضرورة التخلص من القابلية للاستعمار، وهذا يعنى ضرورة التعرف على الأسباب التي أدت إلى بزوغ الظاهرة الاستعمارية.
- خطورة التبعية الثقافية والحضارية للغرب.
- على كل حضارة أن تلد منتجاتها بنفسها.

- يرى أن التاريخ الحضاري يتكون من عناصر: إنسان + تراب + وقت.
- والعامل الديني هو الذي يمزج هذه العناصر مجتمعة.
- أهمية التغيير النفسي والذاتي كجوهر للحركة التاريخية ومن ثم التغيير المنشود للمجتمعات الإسلامية.
- البعد المادي في غياب العامل الديني لا يمثل حضارة.
- أهمية الوعي بدورة الحضارة للمسلم المعاصر، وذلك لنعرف موقعنا في إطار الحقبة التي تحياها.
- لابد من التعرف على أهمية البعد الإنساني، وحقيقة المادة، وحيوية عنصر الزمن.
- لابد من التعرف على أهمية التوجيه في حركتنا الاجتماعية والحضارية، وذلك من خلال توجيه الثقافة والعمل ورأس المال.
- أهمية التعرف على معنى الثقافة في الإطار التربوي.
- التوجيه الأخلاقي ودوره في صناعة الحضارة.
- أهمية تربية الذوق الجمالي.

الكتب التي احتواها هذا المحور:

- دستور الأخلاق في القرآن محمد عبد الله دراز د. الجيلند.
- الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان دراز د. الجيلند.
- الإسلام عقيدة وشريعة الشيخ محمود شلتوت سليمان الخطيب.
- القرآن وقضايا الإنسان عائشة عبد الرحمن سيد فرج.
- الإسلام وأوضاعنا القانونية عبد القادر عودة جمال قطب.
- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث الغزالي جمال قطب.
- شروط النهضة مالك بن نبي سليمان الخطيب.

openkan.com